

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرا عنه أنه قال : { رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا } { فدعا ربه أني مغلوب فانتصر } فعند ذلك أوحى الله إليه { أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن } فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم { واصنع الفلك } يعني السفينة { بأعيننا } أي بمرأى منا { ووحينا } أي تعليمنا لك ما تصنعه { ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون } فقال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه ويبيسه فكان ذلك في مائة سنة ونجرتها في مائة سنة أخرى وقيل في أربعين سنة والله أعلم وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة : أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزورا يشق الماء وقال قتادة كان طولها ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم قالوا كلهم وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفل للدواب والوحوش والوسطى للإنس والعليا للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا من حديث علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : هذا كعب حام بن نوح قال ف ضرب الكتيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفخ التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام : أهكذا هلك ؟ قال : لا ولكني مت وأنا شاب ولكني طننت أنها الساعة فمن ثم سبت قال حدثنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر روث الدواب أوحى الله إلى نوح عليه السلام أن اغمر ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد ف ضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر فقال له عيسى عليه السلام : كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت .

قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الخصرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله : ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال فقال له : عد بإذن الله فعاد ترابا وقوله : { ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه } أي يهزءون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق { قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم } الآية وعيد شديد وتهديد أكيد { من يأتيه عذاب يخزيه { أي يهينه في الدنيا } ويحل عليه عذاب مقيم } أي دائم مستمر أبدا